جلوسه على العرش - إنجازاته الأولى - حملته الأولى

انتهت أيام الأمير سليمان في "مَانِيسَا" بتلقيه خبر وفاة والده في ٨-٩ شوال سنة ٩٢٦هـ (٢١-٢٢ أيلول/سبتمبر ١٥٢٠م) من المبلّغ (كَدْخُدَا[٦] سليمان آغا) الذي أرسله الوزير الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا.

وقد مرض والده سليم عندما غادر إسطنبول في طريقه إلى أَدِرْنَه، وتوفي بالقرب من "جُورْلُو (*Çorlu*)" ربما بتسمم دم خُرَّاج ظهر في ظهره أو بسبب وباء الطاعون.

كان والده صاحب شخصية قاسية وقوية للغاية لا يمكن أن يُتنبأ أو يُخمَّن بما سيفعله، ولكنه جعل العثمانيين -بسياسته المتزنة- أكبر قوة في الشرق والعالم الإسلامي.

لا توجد معلومة بخصوص علاقات سليمان مع والده باستثناء بعض الحكايات التي رويت فيما بعد ويصعب تصديقها، فالروايات والحكايات التي لا يمكن تصديقها لا ترتبط بالواقع مثل أن ابنه تأثر بتصرفات سليم القاسية بل وأنه فكر أيضًا في القضاء عليه أو التخلص منه. ومثل هذا النوع من الحكايات ما هو إلا خرافة، ربما تكون اختُلقت انطلاقًا من معاملات سليم تجاه الوزراء الذين حوله، وعلى عكس هذه الحكايات والخرافات كان سليمان يتعايش مع والده دائما بالحسنى والطاعة، ولم يخالفه في شيء وتصرف معه كابن بار مهذب ومحترم وصادق.

وفضلًا عن ذلك... لو لوحظ أنه الوارث الذكر الوحيد لآل عثمان لتبين

---

(٦) كَدْخُدَا (*Kethüda*): الموظف الثقة المكلف بإدارة مكان ما. ويُطلق عليه بين العامة اسم "كهيا" أيضا. وقد كان هذا اللقب يذكر مصحوبا بالعمل الذي يضطلع به بصفة عامة في تاريخ النظم العثمانية. ومن ذلك مثلا: كتخدا الخزانة، وكتخدا السجلّ، وكتخدا الوزارة. (المترجم)

بوضوح كم أن زعم رغبة سليم الأول في الأمر بقتله شيء غير معقول وليس له معنى.

بعد أن تلقى الأمير سليمان خبر وفاة والده تحرك إلى إسطنبول بطريق البر مع رجاله ووصل إلى "أُسْكُودَارْ (*Üsküdar*)"(٧) في ١٧ شوال سنة ٩٢٦هـ (٣٠ أيلول/سبتمبر ١٥٢٠م) ومن هناك ركب القارب ووصل إلى قصر "طُوبْ قَابِـي" وجلس على العرش. وقد أخفي خبر وفاة والده عن الجميع حتى وصل هو إلى القصر أولا، وفي اليوم التالي ذهب إلى "أَدِرْنَه قَابِـي (*Edirnekapı*)" لاستقبال جثمان والده. وأجريت مراسم الجنازة في جامع الفاتح، بعد أن أدى السلطان الجديد صلاة الجنازة على والده زار أضرحة أجداده وأمر بتوزيع "منحة الجلوس"(٨) على العرش حسبما جرت العادة.

ثم أمر بإحضار حرمه الموجود في "مَانِيسَا" والأمراء (مصطفى ومحمود ومراد)، وترك الوزير الأعظم "بِيرِي (*Piri*) محمد بَاشَا" في منصبه كأول قرار يتخذه، ورقى مربيه السابق قاسم إلى رتبة الوزير وبهذا ارتفع عدد الوزراء في الديوان إلى أربعة مع بِيرِي محمد بَاشَا ومصطفى بَاشَا وفرهاد بَاشَا.

وأبلغ الولايات المختلفة والدول الصديقة بعد ذلك أنه اعتلى العرش، وذلك بخطابات التتويج التي كتبها لهم. كما أصدر أمره الأول بخصوص بناء "عِمَارَتْ خَانَه (*İmarethane*)"(٩) وضريح وجامع من أجل والده.

---

(٧) أُوسْكُودَارْ: منطقة تقع بالطرف الآسيوي لمدينة إسطنبول. (المترجم)

(٨) يطلق لفظ "جلوس" على الحفل الذي ينظم حين يعتلي السلطان العرش في الدولة العثمانية. كما يُطلق على العطايا التي يوزعها السلطان حين اعتلائه العرش اسم "عطايا الجلوس". وقد كانت أولى عطايا الجلوس في الدولة العثمانية تلك التي أعطاها يِيلْدِرِيمْ بَايَزِيدْ الذي اختير سلطانا في كُوسُوَا عام ١٣٨٩م، واستمر هذا التقليد حتى جلوس السلطان عبد الحميد الأول على العرش. (المترجم)

(٩) العمارة أو دار العمارة: مؤسسات خيرية تشكلت في عهد الدولة العثمانية بهدف مساعدة المعدمين والمعوزين. وعلى حين كانت مأوي الفقراء هذه تقدم المساعدات الغذائية والكسائية والصحية للقادمين من خارج المدينة وعابري السبيل والمعوزين والعجزة في أول أمرها؛ تحولت لاحقا إلى أماكن لتقديم الطعام فحسب. وكانت نفقاتها توفر من دخل الأوقاف التي يؤسسها منشؤوها. (المترجم)



ضريح السلطان سليم

وتُبيـن مصـادر تلك الفترة أن أعماله التي قام بها بعد جلوسـه على العرش كانت عبارة عن نشـر العدل وحماية رعيته، وتذكر هذه المصادر بعض النماذج مـن هـذه الأعمال، مثل: إذنـه للصناع والأمـراء البالـغ عددهم من سـتمائة إلى ثمانمائـة بالعودة إلى بلادهم، وكانوا قـد أحضروا من تَبْرِيزْ والقاهرة فيما مضى مـن قبل والده السـلطان سـليم، ورفـع الحظر على تجـارة الحرير مـع إِيرَان، وعـوّض التجار الذيـن حُجِز على بضائعهم، وعاقب الإداريين والعسـكر الذين يؤذون الشعب، وأمر بإجراء تحقيق عام... فعلى سبيل المثال بوشرتْ الإجراءات القانونية ضد جعفر بَكْ قائد القوات البحرية والذي يعمل أميرا[١٠] على سَـنْجَقْ "غَالِيبُولِي (*Gelibolu*)" والمشـهور بين الأهالي بـ"جعفر الدموي"، والذي كثرت شكاوى الناس منه.

---

(١٠) أمير (حاكم) السنجق: اسم أُطلق على من يرأس خمسة أو عشرة مراكز في تلك الفترات التي طُبق فيهـا تقليـد الإقطاع (تِيمَـار) مـع تنظيم الإيالة في الدولة العثمانية. وقـد كان يُطلق على المناطق الممنوحة خصيصا لأولاد الأمراء أو أولاد الحكام في العصور الأولى لدى العثمانيين اسـم "سـنجق: أي مقاطعة". ويطلـق علـى حاكم كل منها "أمراء: أي أمير". وكانوا ينظرون فـي الدعاوى التي في مقاطعاتهم، ويقررون وفقـا لأحـكام الشـريعة. وقد أُحدث تغيير في مهامهم وصلاحياتهم بناء علـى تطبيق نظام إدارة الولاية في عهد محمود الثاني. (المترجم)

وعندما ثبتت جرائمه التي اتهم بها أُعدم على الفور في (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٥٢١م). كما أنه تم تأديب بعض حكام السناجق الذين كانوا محلا للشكوى منهم بسبب تصرفاتهم غير اللائقة مثل أمير "بريزرن (*Prizren*)" الذي أمر ببيع أناسٍ أحرار كعبيد، وعُوقب عدد من "سِلَاحْدَارْ (*Silahdar*)"(١١) بشدة حيث إنهم كانوا يتجبرون على الشعب، ويظلمونه ويداهمون المنازل.

علاوة على ذلك فإنه أذَن بعد فترة لآخر الخلفاء العباسيين "المتوكل على الله" الذي أحضره والده من القاهرة إلى إسطنبول بالعودة إلى مصر.

وعلى هذا النحو خطى خطواته الأولى نحو ظهور مفهوم جديد للخلافة في شخصيته. وهكذا سوف تنتشر في المستقبل فكرته أنه السلطان الوحيد لجميع المسلمين وخليفتهم.

واعترف الشعب والإداريون بقيمة هذه الأعمال والتصرفات التي اعتبروها مؤشرًا إلى ما سوف يقدمه السلطان الجديد من أعمال وتصرفات، بيد أنه واجه قبل انتهاء الشهر الثاني من توليه السلطنة عصيان الأمير المملوكي السابق "جَانْبَرْدِي الغزالي (*Canberdi Gazali*)"(١٢) الذي عين حاكمًا على إمارة دمشق في عهد والده.

التمرد الأول: جَانْبَرْدِي الغزالي

كان جَانْبَرْدِي الغزالي -الذي أُطلق سراحه من قبل "قَايِتْبَايْ (*Kayıtbay*)"- في الأصل أسيرًا إسلافيا (صقلبيا) دلماسيا(١٣)، وحظى بنفوذ واسع في عهد

(١١) سِلَاحْدَارْ: مصطلح يستخدم بمعنى حامل السلاح. وقد تأسس في عهد يِلْدِرِيمْ بَايَزِيدْ. وكان حملة الأسلحة يُنشئون بين الشباب المستقدمين إلى أَدِرْنَه، ويرتقون إلى هذا الموقع مع مرور الزمان. وقد استمرت هذه الوظيفة حتى عصر السلطان محمود الثاني. ويمكن تعريب هذا المصطلح إلى حامل السلاح السلطاني. (المترجم)

(١٢) جَانْبَرْدِي الغزالي: حاكم ولاية دمشق إبّان الفتح العثماني، وقاد حركة تمرد ضد العثمانيين بعد ذلك، إلا أنها باءت بالفشل وأُعدم على إثرها عام ١٥٢١م. (المترجم)

(١٣) "الدلماس" أحد أبناء دلماسيا في الجزء الغربي من يوغسلافيا. (المترجم)

"طُومَانْبَـاي (*Tomanbay*)"، وقد استجار بسليم الأول بواسطة "خَايِرْبَـاي (*Hayırbay*)" أمير حلب التي كانت تابعة للمماليك.

وعندما استولى سليم على مصر عين خَايِرْبَاي على مصر، أما الغزالي فعينه على إمارة دمشق ولما توفى سليم، وحل السلطان سليمان محله، لاحظ الغزالي قلة تجربة سليمان وعدم خبرته، وقال حسبما ورد في المصادر ما يأتي:

"إنما كان ذلك من السلطان سليم وإنما هذا ولد صغير (يقصد سليمان الأول) وليس لـه قدرة على فعل شيء من ذلك ولا أظنه يتم سنته في المملكة".

وعقب مراسم الجلوس -على العرش- أعلن جَانْبَرْدِي الغزالي على الفور عن حكمه واستقلاله، وتلقب بـ"الملك الأشرف" وأمر بقراءة الخطبة وسك العملة باسمه، واعتمد بدرجة كبيرة على أشراف وأعيان القبائل الذين حوله، وأرسل في الوقت نفسه خطابات إلى الحاكم الصفوي الشاه إسماعيل عن طريق وَالِي بغداد الصفوي بخصوص تحركاتهما معًا، كما كان يحاول استمالته وضمه إليه عن طريق إرسال سفراء وخطابات إلى وَالِي مصر خَايِرْبَاي الذي توسط من أجله فيما مضى، وبالإضافة إلى ذلك أرسل رجالا إلى "فابريزيوس كاريتو (*Fabrizio de Caretto*)" السيد الأعظم لفرسان "رودس (*Rodos*)" وتلقى منهم مساعدات كالأسلحة والذخائر.

كان الغزالي يجري وراء الآمال العريضة مثل الاستيلاء على سوريا وفلسطين أولا ثم مصر، ويطمح إلى الحصول على الخلافة أيضًا، وبدأ في تحقيق تصوراته وآماله هذه بمزيد من الضغط على خايرباي وَالِي مصر من أجل أن يتحركا معًا. وأرسل إليه خطابات على سبيل التهديد. ثم تحرك في هذه الفترة بعدد كبير من عساكره، واستولى على بيروت. وحرَّض الدروز في جبل لبنان على العصيان والتمرد. أما خَايِرْبَاي فقد اتبع من ناحية خطة متمهلة؛ بأن اقترح عليه ضرورة الاستيلاء على حلب التي تعد بمثابة مفتاح العرب، ومن ناحية أخرى كان يبلّغ إسطنبول بكل الأحداث. وتحرك الغزالي على ما

يبدو بناء على هذه الاقتراحات زحف إلى حلب وحاصر المدينة (١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٢٠م) ولكن نائب حلب "قره جه أحمد بَاشَا" جمع أمراء سناجق حماة وحمص وطرابلس حوله وبدؤوا الدفاع عن حلب الواقعة تحت الحصار، وفي خلال ذلك تلقى السلطان سليمان خبر الحصار فأمر على الفور باجتماع الديوان، وكلف -بناء على القرار الذي اتخذ في هذا الاجتماع- الوزير الثالث "فرهاد بَاشَا"(١٤) -وهو في نفس الوقت متزوج بـ"بَيْخَان سلطان (*Beyhan Sultan*)" شقيقة سليمان الأول- بتأديب الغزالي بمساعدة شَهْسُوَارْأُوغْلُو(١٥) علي بَكْ أمير "ذُو الْقَادِر (*Dulkadir*)".

وتحرك فرهاد بَاشَا بقوات تتشكل من جنود سِبَاهِية(١٦) الإقطاعيات بولايات الأناضول و"قَارَامَانْ (*Karaman*)" و"سِيوَاسْ (*Sivas*)" وأربعة آلاف جندي إنكشاري ومائتي عربة مدفع (٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٠م).

وبينما هو لا يزال في الطريق إذ زحف شَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ بسرعة إلى حلب، ووصل الغزالي خبر تحرك القوات العثمانية فاضطر إلى الانسحاب إلى دمشق، واتبع الغزالي الذي انسحب إلى دمشق سياسة الذبح والقتل في العساكر الإِنْكِشَارِيّة وأناس آخرين ممن خالفوا أمره في هذا المكان.

وفي تلك الأثناء عندما تعقب حاكم "قَارَامَانْ" "خُسْرَوْ (*Hüsrev*)" بَاشَا الموجود في حلب وشَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ والمدافعون عن القلعة -جَانْبَرْدِي

(١٤) فرهاد بَاشَا: قائد عسكري عثماني ورجل دولة من أصول بوسنية. (المترجم)

(١٥) أوغُولْ (*Ogul*): معناه في اللغة التركية ابن. ("شَهْسُوَارْ أُوغْلُو علي" يعني علي بن شَهْسُوَارْ.) (المترجم)

(١٦) السباهي: أي الفارس: طبقة الفرسان العسكر/الجند الخيالة المدرعين في الجيش العثماني. ويشكل الفرسان/الخيالة المقطعون الذين يمثلون العمود الفقري للجيش العثماني أكثر طبقاته حشدا وكثافة. الوظيفة الرئيسة لفرسان المُقطعين هي المشاركة في الحرب عند اندلاعها، وتوفير الأمن في فترة السلم في المنطقة التي يعيشون فيها، وتدبير أمورهم المعيشية؛ إن يجمعون الضرائب من الشعب الموجود داخل حدود الإقطاع وفقا لنظام الإقطاع، ويُنشِئون العسكر والجند وفقا لحجم إقطاعهم. وبهذه الطريقة كان يُضمن استعداد الجيش للحرب في أية لحظة من حيث توفر الجند، والعتاد اللازم والتدريب دون حاجة إلى نفقات إضافية أو تحميل الخزانة عبأ إضافيا، وكذلك يتوفر الأمن ويتحقق السلم في عموم البلاد في غير أوقات الحرب. (المترجم)

الغزالي وصلت قوات فرهاد بَاشَا أيضًا، وانقسمت القوات العثمانية التي تحركت معا إلى مفرزتين اثنتين. ووصلوا بالقرب من دمشق، فكان شَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ وحاكم الأناضول "أَيَاسْ بَاشَا (*Ayas Paşa*)" في الجانب الأيمن وحاكم "قَارَامَانْ " خُسْرَوْ بَاشَا في الجانب الأيسر.

وفي النهاية التقى الطرفان بالقرب من دمشق في موقع يسمى مُصْطَبَة (٢٠ صفر ٩٢٧هـ / ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٥٢١م) وانهزمت قوات الغزالي نتيجة المعارك الحربية التي استمرت ست ساعات في هذا المكان.

أما الغزالي فحسب إحدى الروايات، بينما هو ذاهب ليحتمي بعشيرة "آنَزَة (*Aneze*)" إذ قتل بسهم أطلق من خلفه أو قُتل حسب رواية أخرى بعد إبلاغ أحد رجاله عنه (٦ شباط/فبراير ١٥٢١م) أما الشاه إسماعيل الحاكم الصفوي الذي انتظر الظرف المناسب للتعاون معه لما تلقى خبر هزيمته، والقضاء عليه تراجع على الفور، وذهب إلى "قَزْوِينْ (*Kazvin*)" غير أن فرهاد بَاشَا أُمر بالانتظار لفترة على حدود إيران تحسُّبًا لأي احتمال، وعلى سبيل التأمين.

وفي ذلك الحين مُنحت إمارة دمشق لوَالِي الأناضول أَيَاسْ بَاشَا، وأجريت تعيينات جديدة أيضًا في سناجق القدس وغزة وصَفَد.

الحملة السلطانية الأولى: بَلْغِرَاد (*Belgrad*)

شعر السلطان سليمان بسعادة غامرة لإخماد واقعة الغزالي. وعندما وصل خبر النصر إلى القصر وكان يخطط للخروج في حملة كبيرة تقوي سلطنته وفي الوقت نفسه تُحيي تقليد الغزو.

وفي إطار إحياء سياسة الفتوحات تجاه الغرب حدد السلطان سليمان هدفين أساسيين: أولهما، "بَلْغِرَاد" التي تعد أهم موقع في وسط أوروبا، والآخر جزيرة "رودس" المهمة للغاية من حيث السيادة والسيطرة على البحر الأبيض المتوسط.



فتح "بَلْغِرَاد"

وتحمل عملية بَلْغِرَاد العسكرية -وهي الحملة السلطانية الأولى- أهمية رمزية ليس من الناحية العسكرية فحسب بل من ناحية صورة الدولة أيضًا فهذا المكان كان هو الهدف الأساسي الذي أخفق فيه جده الأعلى السلطان محمد الفاتح فيما مضى، وكان السلطان سليمان يستهدف بفتح بَلْغِرَاد تحقيق انفتاح جديد تجاه الغرب.

وفي تلك الأثناء خاض "كارل الخامس" من "آل هابسبورج (*Habsburg*)"(١٧) الذي تم اختياره إمبراطورًا في سنة ١٥١٩م في أوروبا غمار الحرب ضد منافسه "فرانسوا الأول" ملك فرنسا بسبب مسألة دوقية "ميلانو (*Milano*)".

ولكنه في حقيقة الأمر قد دخل الحرب بتأثير الخلاف والخصومة بين أفراد الأسرة الحاكمة والشعور بأن فرنسا نفسها محاصرة من جميع النواحي.

أما المَجَريون المسيطرون على بَلْغِرَاد فقد كانوا منشغلين بمشاكلهم الخاصة. ولم يكن "لويس (*Louis/Lajos*)" الثاني الذي اعتلى العرش وهو في التاسعة من عمره في سنة ١٥١٦م في وضع يشعره بعد بنفوذه وصلاحياته. وقد استفاد السلطان سليمان من هذا الظرف المناسبوتحرك أثناء الحملة بمزيد من العزم والثبات والانضباط.

---

(١٧) آل هابسبورج: أسرة عريقة حكمت النمسا مدة جاوزت ستة قرون في العصور الوسطى، ويشار إليهم أحيانًا باسم "آل النمسا"، كانوا أحد أهم العائلات المالكة في أوروبا. وتشتهر كونها مصدر الأباطرة المنتخبين رسميًا لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي ١٤٣٨ - ١٧٤٠م، وكذلك حكام الامبراطوريات النمساوية والإسبانية والعديد من البلدان الأخرى. (المترجم)

ولم يكن مقتل "بَهْرَامْ جَاوُوشْ (Behram Çavuş)" على يد المَجَر إلا ذريعة للقيام بالحملة، حيث إنه قد أرسل إلى المَجَر للإبلاغ عن اعتلاء سليمان عرش السلطنة، وطلب الجزية.

فأرسل أولًا أمرًا إلى فرهاد بَاشَا الذي يتواجد على حدود إيران، وطلب منه أن يأتي إلى منطقة "قَيْصَرِي (Kayseri)" من أجل حماية الحدود بجنود الأناضول وقَارَامَانودُو الْقَادِر و"الرُّومَلِي (Rumeli)" وحلب.

ولم يمر فرهاد بَاشَا -مثلما ذكر بعض الكتُّاب- بالرُّومَ لِيشارك في حصار بَلْغِرَاد، وبقي في هذه المنطقة، وهكذا فإن إرسال رسالة الفتح والنصر إليه بعد فتح بَلْغِرَاد كان بمثابة دعم وتأييد أيضًا لهذا الادعاء، وفوق ذلك أرسلت الأوامر بخصوص حشد الأمراء مع عساكر أمراء الرُّومَلِي، كما أرسلت كذلك الأحكام والأوامر إلى القضاة في الأناضول بشأن جمع الجِمال التي يحتاجها الجيش بالإضافة إلى العتاد الحربي والذخيرة ونقلها إلى الرُّومَلِي.

وفي هذه الأثناء وبينما كانت تتواصل الاستعدادات إذ تحرك "أمير أمراء الرُّومَلِي"(١٨) أحمد بَاشَا أيضًا من إسطنبول بأمر السلطان، وذهب إلى نواحي "إِيبْصَلَا (İpsala)"، وبدأ ينشغل بأعمال حشد الجند.

تم إرسال "دَانِشْمَنْد رَئِيس (Dânişmend Reis)" أيضًا إلى هذه النواحي بأسطول مشكَّل من خمسين سفينة حربية شراعية من أجل حماية الأراضي الممتدة إلى سواحل نهر "طُونَة (Tuna)" على البحر الأسود، وفوق ذلك أمر بصنع أربعمائة سفينة شحن للجنود والمعدات والدواب.

أما السلطان فقد تحرك في ١٠ جمادى الآخرة سنة ٩٢٧هـ (١٨ أيار/مايو ١٥٢١م) على رأس جيشه من إسطنبول إلى بَلْغِرَاد. ثم كلف السلطان سليمان

---

(١٨) قسم العثمانيون بلدهم إلى إيالات على نحو يشبه نظام الولاية في الوقت الراهن، وعينوا على رأس هذه الولايات موظفا كبيرا ذا صلاحيات عسكرية ومدنية يحمل لقب "بَكْلَرْ بَكِي (Beyler Beyi)": أي أمير الأمراء. (المترجم)

القانوني "الصدر الأعظم"[١٩] بِيرِي محمد بَاشَا بأمر بَلْغِرَاد. ووصل هو إلى أَدِرْنَه في ٢٨ أيار/مايو وانضمت إليه قوات الرُّومَلِي في هذا المكان ووصل الجيش إلى "فِيلِبَة (*Filibe*)" في ٧ حزيران/يونيو، واجتمع الديوان في هذا المكان، وتم التشاور والبحث في الاجتماع بصورة عامة حول كيفية التحرك أثناء الحملة وسهولة وصعوبة الطريق.

بوصول الجيش إلى "صُوفْيَا (*Sofya*)" اجتمع الديوان على الفور وبُذلت الجهود لاتخاذ القرار بشأن موضوع: إلى أين سيتم توجيه الحملة؟، وظهرت فكرتان أساسيتان أولاها فكرة أحمد بَاشَا أمير أمراء الرُّومَلِي وهي: الاستيلاء على "سابامش (*Sabacz*)" أي: "بُوكُرْدَلَنْ (*Bögürdelen*)" ثم السير إلى "بُودِينْ (*Budin*)" مركز المَجَر.

أما الصدر الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا فكان يدافع بحماس عن فكرة الاستيلاء على بَلْغِرَاد التي تعد بمثابة مفتاح المَجَر.

ويتبين أن أولى هذه الأفكار التي طرحت في الديوان هي التي أثرت أكثر في السلطان، فحسب القرار الذي اتخذ في الديوان، فقد أُمر بِيرِي محمد بَاشَا مرة ثانية بحصار هذا المكان فى التو واللحظة حتى لا تأتي أي مساعدة من أماكن أخرى في بَلْغِرَاد. كان السلطان كذلك قد أرسل أحمد بَاشَا من قبل إلى بُوكُرْدَلَنْ ثم تحرك هو أيضًا من بعده، وبالإضافة إلى ذلك فقد وصلت حمولة عشرة آلاف عربة من الذخيرة من نواحي صُوفْيَا و"سَمَنْدِرَه (*Semendire*)" وآلَاجَه حِصَار (*Alacahisar*) من أجل حاجة الجيش وذلك دون أن يغادر الجيش صُوفْيَا، وتم تحميلها على الجمال التي نقلت من الأناضول ودُفعت أثمانها أيضًا مقدمًا من الخزانة.

(١٩) الصدر الأعظم بالعثمانية صدر أعظم أو وزير أعظم وهو أعلى منصب تحت السلطان مع السلطة المطلقة له وهو الذي يحمل ختم السلطنة، وسلطة تعيينه وعزله حق للسلطان فقط، وتنعقد جلسات الوزراء بأمره للإطلاع على شؤون الدولة. (المترجم)

أقام السلطان سليمان خيمته على شاطئ نهر "صَاوَه (Sava)" وأمر ببناء جسر على النهر وأُرسلت الأوامر إلى أمراء "الآكِنْجي (Akıncı)"(٣٠) المتواجدة في هذا المكان، وطلب من القوات التابعة لـ"مِيهَالْ أوغلُو (Mihaoğlu)" محمد بَكْ السير إلى المَجَر وعودة عمر بَكْ أُوغْلُو ومن هم تحت إدارة حسن بَكْ إلى المعسكر مقر الجيش.

وهكذا يتضح أن السلطان أخذ بفكرة السير إلى بُودِينْ بناء على رأي أحمد بَاشَا، ولأن الحصول على هذا المكان سوف يسهل الاستيلاء على الأراضي الباقية مثل قلعة بَلْغِرَاد.

وخلال هذه الفترة كانت القوات التي تحت قيادة أحمد بَاشَا أمير أمراء الرُّومَلِي -وهي من الجيش الأصلي للسلطان- قد وصلت إلى مشارف قلعة بُوكُرْدَلَنْ. وقد فُتحت قلعة بُوكُرْدَلَنْفي ٧ تموز/يوليو نتيجة كفاح شديد من قبل القوات العثمانية؛ فهي القلعة التي كتب عنها المؤرخ "بَجُويْلُو (Peçuylu)" بأنها بنيت من قبل شعبان بَكْ أمير سَمَنْدِرَه فيما مضى من أجل السيطرة على بَلْغِرَاد وأن المَجَريين أطلقوا على هذه القلعة فيما بعد "شَابَاشْ (Şabaş)" وفي تلك الأثناء دخل السلطان الذي كان بالقرب من بُوكُرْدَلَنْ إلى المدينة في اليوم التالي للفتح وأمر بعمارة القلعة وقال:

"يجب أن تكون القلعة التي فتحتها أولا عامرة".

بعد ذلك ذهب السلطان إلى منطقة "سِيرَمْ (Sirem)"، أما الصدر الأعظم بيري محمد بَاشَا الذي كان مشغولا في تلك الفترة بحصار بَلْغِرَاد فقد عين خُسْرَوْ بَكْ أمير سَمَنْدِرَه من أجل فتح قلعة "زَمِينْ (Zemin)" القريبة من بَلْغِرَاد.

(٣٠) الآكِنْجي (أي: المهاجمون/المحاربون): اسم أطلقه الأتراك العثمانيون على قوات الفرسان/الخيالة الخفيفة نظرا لحركتهم السريعة. وكانوا يتشكلون من الفرسان الذين يحسنون الركوب الخيل من الدرجة الأولى. وكانوا يتواجدون على الحدود أو في المناطق القريبة منها، يهاجمون صيفا وشتاء؛ فيأسرون ويأخذون الأموال، يجمعون معلومات مهمة بحق وضع العدو وقوته، والطرق، وكان المهاجمون يقومون في زمن الحرب بمهمة فرقة الجيش الاستطلاعية. (المترجم)

واستولى خُسْرَوْ بَكْ على القلعة في ١٢ تموز/يوليو بقصف مكثف للمدافع وفي نفس الوقت أرسل الصدر الأعظم بِيرِي محمد بَاشَا الوزير الثاني "جُوبَانْ (*Çoban*)" مصطفى بَاشَا وهو متزوج بهانم سلطان إحدى شقيقات السلطان سليمان الأخريات إلى نواحي "صَلَانْ قَامَنْ (*Salankamen*)" وفي تلك الأثناء قرر السلطان سليمان رفع الحصار عن بَلْغِرَاد متبعًا مشورة أحمد بَاشَا برفع الحصار عن بَلْغِرَاد والذهاب بجميع القوات إلى بُودِينْ.

إذا كان بِيرِي بَاشَا قد بدأ بمقتضى هذا القرار رفع هذا الحصار بعد أن تقطعت به الأسباب وسحبَ المدافع إلا أن السلطان غيَّر قراره عملا برأي مصطفى بَاشَا و"بَالِي (*Bali*) بَكْ" ابن يحيى بَاشَا.

وقد ذكر مصطفى بَاشَا القادم من "صالان قامن" أن السلطان لم يوافق على عرضه الذي قدمه له بمحاصرة بَلْغِرَاد من قبل، إلا أن هذا العرض قد اكتسب أهمية كبيرة الآن. كما يتضح أن كلام بَالِي بَكْ كان مؤثرًا أيضًا على السلطان "في العدول عن قراره. وعلاوة على ذلك كان ثمة ملاحظات مثل اقتراب الخريف، والوقت الذي سوف يستغرقه عبور الجيش بسبب تداعي الجسر الذي بُني فوق النهر مما أدى إلى تغير فكرة السلطان السابقة.

وأخيرًا وفي الأول من آب/أغسطس أصدر السلطان سليمان الذي أقام خيمته في موقع مرتفع بجوار "زَمِينْ" أمر بشكل قاطع بمحاصرة بَلْغِرَاد قائلا:

"لم يُتوقع أن يكون هذا الحصن صعبًا في الحقيقة".

وبدأ الحصار بوضع المدافع في اتجاهات الجزيرة. ووضع بِيرِي بَاشَا قواته في اتجاه الجنوب، والوزير الثاني مصطفى بَاشَا في اتجاه الشمال، وأحمد بَاشَا أمير أمراء الرُّومَلِي في اتجاه الغرب وحفروا الخنادق والمتاريس والحواجز الدفاعية، واشتد الحصار فجأة. ودخلت القوات العثمانية إلى القلعة الخارجية، وبعد أن تم الدخول إلى القلعة الخارجية حُفرت الأنفاق والقنوات تجاه أحد

الأبراج من أجل الاستيلاء على القلعة الداخلية، وتحطم البرج نتيجة "لَغِم"[٢١]، واضطر الجنود المدافعون عن القلعة إلى تسليم المدينة للعثمانيين في (٢٥ رمضان ٩٢٧هـ / ٢٩ آب/أغسطس ١٥٢١م)

وقد شعر السلطان سليمان بسعادة غامرة بفتح بَلْغِرَاد. لأنه أصبح الآن سلطانًا مظفرًا حصل على قلعة مهمة للغاية وصعبة لم يستطع جده الأعلى السلطان محمد الفاتح أن ينجح في الاستيلاء عليها، وفي اليوم التالي دخل السلطان سليمان المدينة، وصلى الجمعة في الكنيسة الكبيرة التي تحولت إلى جامع، ثم أمر بعد ذلك بتوزيع المنح والعطايا على العساكر والأمراء.

وفضلا عن ذلك أَذِن لمن يريد من أهالي بَلْغِرَاد بالذهاب إلى المَجَر، وترك من يريد البقاء في بَلْغِرَاد على أن يدفعوا الجزية، فانتقل بعض أهالي بَلْغِرَاد إلى إسطنبول، وأنشأوا قرية بَلْغِرَاد فوق "بُيُوكْ دَرَه (*Büyükdere*)". وأطلقوا أسماءهم أيضًا على الغابة التي لا تزال موجودة في هذا المكان حتى اليوم.

وتم إرسال كتاب النصر والفتح بشأن فتح بَلْغِرَاد إلى كل من شَهْسُوَارْأُوغْلُو علي بَكْ، وفرهاد بَاشَا وحاكم البندقية. كما تم منح بَالِي بَكْ بن يحيى بَاشَا منطقة سَمَنْدِرَه وتسعمائة ألف "أَقْچَه (*Akçe*)"[٢٢] من أجل حماية بَلْغِرَاد. وكان بَالِي بَكْ ينتسب إلى عائلة آقينجي بَكْ المشهورة في منطقة الرُّومَلِي وكان في الوقت نفسه متزوجًا بابنة جَوْدَة أحمد بَكْ حفيد ابنة بايزيد الثاني، غير أنه وجد نفسه في موقف حرج للغاية بسبب تصرفات زوجته غير الملائمة، فقضى أيامًا حزينة للغاية باذلا الجهد من أجل إنقاذ شرف هذا الجندي الشجاع وصاحب الخبرة والتجربة. أما عن البُوسْنَة فقد عُين عليها خُسْرَوْ بَكْ الذي جعل من أولوياته أن تصبح مدينة "سَرَايْ بُوسْنَة (*Saraybosna*)" مركزًا كبيرًا.

---

(٢١) لَغِم (*Lağım*) أي لَغَم: تعبير يستخدم بحق الأماكن التي تُحفر فتملؤ بالبارود، ثم تفجّر لفتح ثغرة في أسوار قلاع العدو لإسقاطها أو لإلحاق الضرر بمعسكرات جيوش العدو. وكان يُطلق على القائمين بهذا العمل لفظ: "لَغِمْجِي (*Lağımcı*) أي اللَّغَام". ويمكن تعريبها على نحو حفرة التفجير. (المترجم)

(٢٢) أَقْچَه: العملة الفضية المستخدمة لدى العثمانيين. (المترجم)

وإلى جانب هذا خصص السلطان عشرين ألفًا من الذهب من أجل تعمير بَلْغِرَاد، وأمر بإنشاء المباني مثل الجامع وعِمَارَتْ خَانَه والمسجد وأمر بالإبقاء على مقدار كاف من الجند والمؤونة في المدينة ثم تحرك إلى إسطنبول في ١٣ أيلول/سبتمبر.

عائلته الجديدة / أفراد أسرته وخُرَّم سلطان

كان السلطان سليمان قد حقق هدفه الأول بفتح بَلْغِرَاد. واستطاع أن يطرح فكرة جديدة لغزو العالم المسيحي في الغرب جاعلا هذا المكان قاعدة عسكرية. ومن المحتمل أنه في أثناء تحركه من بَلْغِرَاد إلى أَدِرْنَه منتشيًا بانتصاره الأول هذا أصيب بصدمة شديدة ستخيم على كل هذه السعادة التي شعر بها.

فبينما هو في طريق العودة إذ تلقى خبر وفاة ابنه الأكبر الأمير مراد في ٢١ شوال ٩٢٧هـ (٢٤ أيلول/سبتمبر ١٥٢١م) فتأثر للغاية وحزن حزنًا شديدًا ووصل إلى أَدِرْنَه في ٩ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٥٢١م لعله يجد التعزية والسلوى في أبنائه الآخرين.

وعند عودته إلى إسطنبول في أواخر الشهر نفسه أصيب بصدمة أخرى بوفاة ابنه الآخر الأمير محمود. وقد انتشر مرض الجدرى في القصر، ووقع هذان الأميران الصغيران ضحية لهذا المرض المعدي. ولسبب ما لم يصب الأمير مصطفى بهذا المرض إما لأنه لم يصب به أصلًا، أو أصيب وشفاه الله.

وقد خفف عنه نجاة ابنه الأخير الذي بقي على قيد الحياة. ولكن في ذلك الحين لم يخطر بباله أنه سيأمر بنفسه بقتل ابنه الذي فرح بنجاته بزعم أنه سيتطلع فيما بعد إلى العرش.

والآن أصبحت الأفضلية فجأة في القصر لابنه مصطفى، ووالدته مَاهِي دَوْرَانْ، ومع ذلك كانت حياة هذا الابن الذكر الوحيد في خطر في كل لحظة.

كان يجب دوام واستمرار الأسرة الحاكمة، وكان استمرارها ودوامها مرهونًا بأبناء ذكور جدد.

فمن المحتمل أن والدته وأخواته البنات اللاتي كن يفكرن في هذا الأمر وجدن له جواري حديثات العهد بالقصر.

وإن جود الشائعات في تقارير بعض البنادقة فيما يخص أن السلطان سليمان انعزل في الحرم، وأنه عُرض عليه الكثير من الزوجات كان في الحقيقة نتيجة لمثل هذه الحاجة.

وقد كتب سفير البندقية "ماركو مينيو (*Marco Minio*)" الذي قرئ تقريره في مجلس شيوخ البندقية في سنة ١٥٢٢هـ فيما يتعلق بهذه الأحداث ما يأتي:

"فقَدَ ثلاثة أبناء ابنين وابنة في غضون بضعة أيام ليس إلا؛ توفي اثنان منهم قبل عودة السلطان من حملة بَلْغِرَاد، والثالث بعد العودة منها، ومن ثم تبقى له ابن تجاوز عاما من عمره في هذا الوقت. وقبل أن يغادر إسطنبول ولد له طفلان آخران. ولو توفي السلطان لوقعت دولته في اضطراب شديد ويقال إنه أسير شهوته بإفراط، فكثيرًا ما يذهب إلى القصر الذي توجد فيه النساء، حيث يمضي حياة مضطربة مختلّة النظام".


نقش تمثيلي بارز رسمه ماثيو باغاني (*Mathio Pagani*) عام ١٥٥٠م لـ"خُرّم سلطان"

وعلى العكس من هذه الشائعات، لم يكن السلطان سليمان في الحقيقة يجري وراء المتع والملذات الشخصية في أي وقت، ولكن يبدو أنه قد اضطر نوعًا ما إلى ذلك، لرغبته في أن يكون له أولاد يرثون الأسرة الحاكمة، وفي ذلك الحين لم يرزق بمولود من مَاهِي دَوْرَانْ والدة ابنه الوحيد مصطفى.

بـدأت ولادة أطفالـه الذكور من جارية جديدة هي خُرَّم سـلطان التي ما إن جاءت من "مَانِيسـا" إليه حتى انضمت إلى الحرم، ولم تلفت نظره حينئذ، إذ لم تكن جميلة للغاية إلا أنها تميزت بالسحر والجاذبية.

وهكذا فإن تكوين سـليمان الأول لعائلة جديدة يصادف الفترة التي أعقبت أحـداث الوفـاة ويهدف إلى إكسـاب الأسـرة الحاكمة أعضاء جـددًا. وأما هذه العائلـة الجديدة فتبدأ بإنجاب "خرم سـلطان" الأطفال الواحد تلو الآخر اعتبارًا من سنة ١٥٢٢م.

باختصـار فـإن الأسـرة السـابقة التـي نقلهـا سـليمان أخيرًا مـن "مَانِيسَـا" إلى إسـطنبول والتي تمثلها مَاهِي دَوْرَانْ سـوف تتنحى جانبًا شيئًا فشيئًا. وكانت بداية كل هذه الأحداث وباء الجدري الذي أفقده ابنيه هذين وربما ابنة أو ابنتين من بناته الأخريات أيضًا.

ومـا كان لأحـد حينئذ أن يخمن أن كل هذه الأحداث -التي صنعتها جميعًا يد القدر- سوف تؤثر جذريًا في الأسرة الحاكمة وهي. فقد أصبحت خرّم سلطان لها الأولوية في القصر، واندلعت الشـرارات الأولى لصراع داخلي على السـلطة مـع الأسرة السابقة، أو مـع مَاهِي دَوْرانْ التي لـم ترغب في تقبل هذا الأمر.

ولا نصـادف هـذه الأحـداث على الإطلاق فـي تواريخ الوقائـع العثمانية المعاصرة لتلك الفترة والمصادر الرسمية. ولا يمكن أن تستخرج إلا من تقارير السفراء الغربيين.

كان تمكُّن خرم سلطان من فرض نفسها في الحرم صعبًا للغاية في الواقـع. وقد ورد في تقرير أحد السفراء البنادقة في سنة ١٥٢٤م أن السلطان كان يقضي الليالي مـع زوجة واحدة فحسـب، وأن خرّم سلطان قد أصبحت بمنزلة الزوجة الوحيـدة للسـلطان بعـد أن أنجبـت الأطفال الذكـور. إلا أن المصـادر لم تقدم معلومات كافية فيما يخص كيفية حدوث هذا.

وفي الحقيقة فإن الأحداث التي ذكرت في بعض المصادر الإيطالية والتي تتحدث عن خرم سلطان لايستند كثير منها إلى الوقائع بل إنها مجرد شائعات.

الدبلوماسية الأولى:
المفاوضات التي أجريت مع السفراء الأجانب

صُدم السلطان سليمان كثيرًا بوفاة أبنائه، ولكنه كرّس نفسه بعد عودته من حملة بَلْغِرَاد لشئون الدولة، وجمع الديوان بالقصر في إسطنبول، واستقبل السفراء الأجانب، وقام بشئون ومصالح الشعب حتى نسي حزنه إلى حد ما.

واستقبل سفراء "راجوزا (*Ragusa*)" و"دبرونيك (*Dubrovnik*)" والبندقية وروسيا في الدواوين التي اجتمعت في إسطنبول، وخاصة أن كلا منهم كان يقصد تهنئة السلطان الجديد، وأيضًا انتزاع معاهدة امتياز باسم حكومته. وكان ممثلو راجوزا يريدون شراء ذخيرة لحاجة بلادهم لها ويطلبون الإعفاء من ضريبة الجمرك في الموانئ والمرافئ.

أما السفراء الروس فهنأوا السلطان بجلوسه على العرش واشتكوا من الغارات الموجهة إليهم من القِرْم.

وإزاء هذه المطالب تم تحذير خان القِرْم محمد كِيرَايْ بعدم إزعاج الروس ومضايقتهم إلا أنه تم رفض معاهدة الروس، أما ممثلو راجوزا فقد نالوا مطالبهم بخصوص التجارة والإعفاء.

وفضلا عن هذه الامتيازات القليلة حازت المعاهدة التي أجريت مع البنادقة أهمية خاصة، حيث كان البنادقة يبدون إعجابهم بالسلطان ويؤيدونه في أعماله، وقد قبل السلطان سليمان هذه المعاهدة التي تصب في صالحهم حتى لا يُحدث أي مشكلة مع البندقية في بحر "إِيجَه (*Ege*)" والبحر الأبيض المتوسط قبيل حملة ردوس التي خطط لها.

فقد تم بعد المفاوضات التي أجراها سفير البندقية "ماركو مينيو (*Marko Minio*)" مع الوزراء العثمانيين توقيع وثيقة المعاهدة بين الطرفين في ١ المحرم ٩٢٨هـ (١١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢١م).

ويذكر سفير البندقية "ماركو مينيو" أنه كثيرًا ما تقابل مع الوزراء العثمانيين آنذاك بِيرِي بَاشَا وجُوبَانْ مصطفى بَاشَا وفرهاد بَاشَا وقاسم بَاشَا، وأنه سُئل أيضًا عن سبب تأخره عن التهنئة بالجلوس على العرش والحصول على معاهدة جديدة. وقد تم قراءة وثيقة هذه المعاهدة في مجلس شيوخ جمهورية البندقية في ٨ نيسان/أبريل ١٥٢٢م، وفي هذه المعاهدة التي احتوت على ثلاثين بندًا تم الاتفاق على حرية التجارة وإحلال الأمن واستتبابه، وأن يكون للبندقية سفير في إسطنبول على أن يتم تغييره مرة واحدة كل ثلاث سنوات. وبموجب البنود الأخرى للمعاهدة سيتم إعادة الأسرى الهاربين وألا يُمس أو يتأذى مصابو ومنكوبو البحر وسيكون كل قبطان مسؤولا عن سفينته وأن يتم إعادة القتلى والمتهمين بالتبادل بين كل من الطرفين وأن يتواجد المترجمون في القضايا التي بين رعايا الدولتين.

وألا يتم حبس "بَالْيُوسْ (*Balyos*)"(٢٣) من أجل دَيْن أيّ مواطن من البندقية، ولا يحق للتجار البنادقة التجوال في البلاد العثمانية بدون تصريح رسمي لهم من سفير البندقية. وستنظر قضاياهم المتعلقة بالتصريح والميراث من قبل سفير البندقية، وألا تُمنع تجارة السفن الخاصة بالبنادقة مع بلاد شمال إفريقيا وأن تفحص السفن التجارية في إسطنبول وليس في غَالِيبُولِي وأخيرًا أن تدفع البندقية جزية من خمسة إلى عشرة آلاف "دوقية"(٢٤) ذهبية في السنة مقابل كل من جزيرتي قبرص و"زَنْتَا (*Zenta*)" (غرناطة).

ومع أن وثيقة المعاهدة هذه لم تأت بشروط جديدة من الناحية التجارية إلا إنها مهمة، وذات شأن خاصة من الجهة الشرعية أو القانونية، وستحتفظ

---

(٢٣) سفير البندقية لدى الدولة العثمانية. (المترجم)

(٢٤) دُوقة: نوع من أنواع العملة الذهبية في البندقية. (المترجم)

وثيقة العهد بخصائصها هذه وبأهميتها دائمًا لأنها؛ تشكل الأساس لهذا النوع من المعاهدات التي سيعقدها العثمانيون فيما بعد.

ويُلاحظ ظهور بعض الموانع والمشكلات في اللحظات الأولى عند تطبيق المعاهدة وتنفيذها فمثلا لا يخفى أن حكما أرسل إلى قاضي غَالِيبُولي يفيد: وصول خبر بتفتيش سفن البنادقة في غَالِيبُولِي كما كان من قبل وطُلبت الرسوم والضرائب وأن هذا مخالف لوثيقة المعاهدة.

كان الأسلوب الهادئ في المباحثات التي أجريت مع السفراء وخصوصًا مع السفراء البنادقة يتميز بأنه يغطى على حملة جديدة عزم عليها السلطان سليمان. كما أن "مينيو (*Minio*)" لم يتنبه إلى ما يقوم به العثمانيون من استعداد من أجل رودس. كان السلطان سليمان عازمًا على القيام بحملة ثانية كبيرة إلى إحدى الجزر وهي رودس. لذلك كان في حاجة ماسة إلى القوات البحرية. وكان يريد أن يظهر للعالم المسيحي -وهو لا يزال في بداية سلطنته- أنه سيكون حاكمًا قويًا في البر والبحر.